آراء وأصداء

في انتظار ... غادا

لو ان باستطاعة الادباء ان يقتنصوا في كتاباتهم ولو شيئا من البراعات المسرحية والبلاغية وجو التآمر والهزل الذي يبدونه في ما يحضرونه من مؤتمرات ادبية دولية ، لاكتسب العالم الف طرفة ادبية اخرى على الاقل . فلا شك ان الاجتماعات التي دارت مؤخراً للتقرير في جائزتي فورمنتور لهذا العام ، وهما الجائزتان اللتان تقدمهما ثلاثعشرة دار نشر في اوربا وامريكا، ويحضرها خمسون ناقداً من مختلف الاقطار يعملون كهيئة محكمين ، كانت معقدة ككتاب لفلاديمير نابوكوف ، وغريبة كصفحة بقلم غادا كتبها بلغة لا تترجم ، وتكاد تكون مشؤومة كرسالة لسولزهنيتسن من وراء الاسلاك الشائكة .

كان فرانكو قد حرم المؤتمر هذه السنة من مقره ، فقد ساءه ان دار النشر الايطالية اينودي في ميلانو نشرت كتاباً يضم اغاني للمقاومة الاسبانية – فسمح لذا لاعضاء المؤتمر بعقده كعادتهم في جزيرة مايوركا ، لكنه استثنى منهم الوفد الايطالي . غير ان بقية الاعضاء ابدوا تضامناً مؤثرا مع زملائهم الايطاليين ، ورفضوا ان يجتمعوا من جديد في فورمنتور ، التي عرفت الجائزتان باسمها . ومع ان قليلا من الناشرين الاخرين كان ليدافع عن الكتاب الذي نشرته دار اينودي (فالاغاني فيه كانت قيمتها اباحية اكثر منها ادبية) الا انهم اتفقوا جميعاً على التفتيش عن جزيرة اخرى تصلح للاجتماع. رودس ؟ كورسيكا؟ هليغولاند ؟ واقترح ناشر الماني عقد المؤتمر في جزيرة خاوية في بحر الشمال ، كانت الطائرات البريطانية قد قلبتها ابان الحرب ارضاً بوارا – لكن ايمكن حقا ان تبحث شؤون الادب اسبوعا بكامله بعيداً هذا البعد عن شطآن البحر المتوسط التي تغسلها الشمس ؟ وكان الناشر الالماني على وشك اقناع الوفود بفكرة جزيرته الشمالية عندما خطرت بالبال لحسن الحظ جزيرة كورفو الهائلة في الادرياتيكي، حيث قذفت الامواج يولسيز في القديم بعد ان تحطمت سفينته (ولقي فيها الاميرة نوسيكا) ، وحيث كان لاخر قياصرة المانيا قصر صيفي رائع (وما زال الاولاد فيها ينشدون اغاني المانية وكأنها من الفوكلور الهوميروسي) .

واستقر المؤتمرون في الجزيرة، لكن انتقالهم من امور السياسة الى امور الادب كان عليه ان يتأخر من جديد بسبب قضية انتخاب رئيس لمؤتمر هذا العام . فقد اقترح الفرنسيون ، بشيء من الثقة بالذات ، شيخهم الجليل جان بولهان . لكنه فشل ، وفازت باكثرية الاصوات المطلوبة ممثلة انكلترا الانسة ايريس ميردوك (الروائية المعروفة واستاذة الفلسفة في جامعة اوكسفورد) . ولمدة اسبوع بكامله استلمت زمام الرئاسة هذه المؤلفة، الجميلة جمالا غريباً كرواياتها ، الذكية ذكاء سديدا كدراساتها الفلسفية ، وتصرفت طواله بمزيد من التواضع والحزم والعدل ، وكانت تقابل كل يوم بالهتاف والاستحسان ، حتى عندما كانت تتزلج على المياه عند الشاطىء او ترقص التويست في صالة القصر .

ولعبت السياسة دورها مرة اخرى . فلم يخل منح «جائزة الناشرين الدوليين» للكاتب الاسباني الفرنسي يورغه سمبران لروايته البكر « الرحلة الكبيرة » من غرائب وتعقيدات ميلودرامية . فبعض الاعضاء الالمان لم يرق لهم ان تعطى الجائزة لكتاب عن معسكرات الاعتقال النازية ، والاسبانيون خشوا من انهم لن يستطيعوا ان ينشروا في بلادهم هذا الكتاب بما فيه من ايدلوجيا لا ترضي عنها الدولة . وقضى المجتمعون صباحاً كأن الحرب الاهلية في اسبانيا والحرب ضد هتلر قد عادتا فيه من جديد. اذ ذاك وصلت المؤتمر برقية غريبة من باريس ، ذكر ان مرسلها هو سلفادور ده مادريارغا ، يحذّر فيها المجتمعين من هذا المؤلف الذي سماه « حجرا قليل الشأن في لعبة شطرنج ستالينية » . وكانت نتيجة هذه البرقية ان التأمت الصفوف منادية بحملة ضد هذا « التدخل السياسي من الخارج » ، وصوّت الالمان انفسهم الى جانب المؤلف الذي كانوا قد قاوموه بشدة من قبل . لكن من كان مرسل البرقية فعلا ؟ بعد ان خفتت موجة النقمة (وبعد ان منحت الجائزة) تبين ان سلفادور ده مادويارغا لم يكن اذ ذاك في باريس ، ولم يسمع قط باسم سمبران ، ولم يرسل اية برقية مطلقاً ! واذا كان صحيحاً ، كما قالت احدى الصحف الانكليزية ، ان خيبثاً ما قد استعمل اسم مادريارغا واسماء استعماله ، فانه ربما كان هذا الخبث ممزوجاً بهدف ما ، فهل كان هذا مقلباً دبره الفاشيون اليمينيون بغية القضاء على سمعة سمبران ؟ او هل كان حيلة شيوعية يسارية ذكية القصد منها تشويه سمعة مادريارغا ، كبير الديمقراطيين الاسبانيين في المنفى ؟ هذه اسئلة لم يعرف احد جوابها ، لكن الحياة الادبية في المؤتمر اخذت لمدة من الزمن طابع رواية بوليسية ، ولم تكن ميردوك لتحل المشكلة فيها ، فميغريه وحده يعرف حلها !

وجاء دور الجائزة الكبرى « جائزة فورمنتور » ذاتها ، التي كانت قد منحت فيما مضى لصموئيل بيكيت الايرلندي ويورغه لوي بورغيز الارجنتيني ويوي جونسون الالماني . واحتدم النقاش نهاراً وليلة بطولهما ، تجلى فيه التواضع الالماني والبلاغة الفرنسية والحياء الانكليزي . وكان جونسون ، الفائز بالجائزة للعام الماضي ، احد المحكمين الالمان ، ولم يكن لديه الا القليل من الكلام يقوله في صالح ادباء وطنه (بتير وايس ، و غنتر غراس ، وهلونت هليسنبوتيل ، وهنريخ بول) . واعترف ميشيل بوتور بعبارات متلافة بان المشهد الادبي في فرنسا غني جداً بالمواهب الادبية الخارقة (كلود سيمون ، ومارغريت ديرا ، وناتالي سارو ، وروب غرييه ، وروبير بنجيه) الى حد يجعل الفرنسيين ، المعروفين عادة بتمجيدهم لتراثهم هم ، يصوّتون هذه السنة لمرشح اجنبي . وقد كان هذا الكرم معدياً ! فساند امريكي روائياً يونانياً (بريفا كاليس) ، وساند الالمان مجرياً ، هو تيبور ديري (وكان قد افرج عنه قبل زمن يسير بعد ان سجن للدور الذي لعبه في ثورة بودابيست في ١٩٥٦) ، وساند سويدي كاتباً فنلندياً (فيجو ميري ، الذي يبدو انه كاتب شاب ممتع جداً ومغمور) ، وامتدح ناقد انكليزي الروائيين اليابانيين ميشيا وتانيزاكي ، وامتدح ناقد اسباني بشدة الكاتب الانكليزي رتشرد هيوز . وبدا الجميع واسعي الصدر منفتحي الآفاق بشكل رائع . بل اني انا أيضاً اسهمت ، من دون قصد ، بادخال عنصر ايدلوجي حاد في المناقشة ، عندما اقترحت الكاتب الروسي الكساندر سولز هنيتسن وكتابه الهائل عن الحياة في سجن روسي « يوم واحد في حياة ايفان دنيسوفيتش » ، ولم اكن اعرف ان المانياً شرقياً كان قد اقترحه قبلي ، هو هانس مبير (ولم يستطع حضور المؤتمر لانه كان اذ ذاك يعاني هجوماً « لانحرافاته العقائدية » في بلاده) .

وظل هذا الوتر المنفتح ، المتخطي حدود القومية الادبية والنعرات الثقافية الضيقة ، مسيطراً

على جو المؤتمر . وتجاهل الانكليز والامريكان حماس سوام لكتـــابهم م (جون ابدايك ، ورتشرد هيوز ، و ج . د . سلنغر ، ووليم غولدنغ) ، وضموا قوام معاً لمساندة فلاديمير نابوكوف المتعدد اللغات ، نجم « النار الشاحبة » ، ومشرّد الادب . هل يتحد معاً مستأصلو الجذور في العالم ؟ لقد ولد نابوكوف في روسيا ، وكتب رواياته الاولى في المانيا ، ونظم شعره في فرنسا ، ووضع روايته « لوليتا » في امريكا ، وهو الآن يطارد الفراش في جبال الالب في سويسرا – فلا عجب ان كان الكاتب المفضل . صحيح انه ليس في حاجـــة لمزيد من الثروة والشهرة ، لكن جميع مؤلفاته تقريباً مهملة (باستثناء كتاب واحـــد معروف بشقاوته) – ومن من مجايليه يضاهيه في اسلوبه وافكاره وبراعته في التجارب الادبية ؟

لكننا ، وا اسفاه ، لم نكن قد حسبنا حساب زملائنا الايطاليين . فهو ذا ابناء روما ، الذين مازالوا يحلمون بامبراطوريات يقهرونها ؛ وهو ذا جماعة مكيافيلي ، المحنكون في امور التكتيك والتخطيط . فلم يكن عندهم ما يقولونه بحق ذوي المواهب من الاجانب ، بل وبحق ذوي المواهب من ابناء وطنهم (جيورجيو بساني وسواه) – بل انهم باجمعهم ركزوا قوام على مساندة رجل واحد ، هو كارلو ايميليو غادا ، وهو ايطالي في السبعين من عمره ، قد يكون في آثاره الادبيـــة «عمق شامل » لكنه معروف بانه «عبقري تعصى آثاره على الترجمة » . بدأت الحلة في صالحه بخطاب بليـغ لالبرتو مورافيا الذي ، كما وصفه احـــد الصحفيين ، « خطا خطوات جبارة كأنه آل كابوني بين زمـــلائه المتقلصين » ، وتبعـــه ايليو فيتوريني ، ثم ايتالو كالفينو . وراحوا معاً ، وكأنهم عصابة محكمة التنظيم ، يبطشون بنابوكوف : فهو كاتب انحلالي ، وهو مشعوذ ، وهو ممثل هزلي ، وهو يستعمل البراعة اكثر مما ينبغي ، وكذا المزاح والالاعيب ، والتأنق . وانضم اليهم الاسبانيون ثم الالمان ، الذين لم يكونوا قد قرأوا كثيراً من نتاج نابوكوف ، او لعلهم لم يقرأوا شيئاً منه مطلقاً . واعترضهم اصرار الفرنسيين والانكليز والامريكان ، الذين لم يكونوا قد قرأوا كثيراً من نتاج غادا ، او لعلهم لم يقرأوا شيئاً منـــه مطلقا (او ان قرأوه فحتما ليس باصله الايطالي ، لأن نثره مليء بالتعابير العامية ويعجز عن فهمه حتى رجال الاختصاص) . واصبح الامر في يد المحكمين السكندنافيين الذين كان بمقدورهم ترجيح هذه الكفة او تلك . وفي الاقتراع الخـــامس انتقلوا باصواتهم ، لاسباب مجهولة لكنها حاسمة ، وساندوا غادا . وانتصب الايطاليون واقفين ، هاتفين ومجلجين . اما جميع الباقـــين ، فظلوا صامتين ، يشعرون بحرج . وهكذا اصبح غادا بين عشية وضحاها بطلا قوميا وموضوع احاديث العالم الادبي بأسره .

وفي اليوم الاخير من الاسبوع ، وكان كل شيء قد اوشك ان ينتهي ، قام يوي جونسون الفائز بجائزة فورمنتور للعام الماضي ليستلم تشيكه الضخم . وابدى شكره ، بالطبع ، لكنه قال انه غير راض تماماً عن الوضع ، واعلن بفظاظة انه سيمتنع عن البقاء في هيئة المحكمين . وقال انه عانى اسبوعاً بطوله من الترف والبذخ ، فلا عجب ان يشعر (وهو الكاتب البروليتاري الاصيل) بانه « غريب واجنبي » . وبعد اسبوع من افاخر المأكول والمشروب تفوه بخطبة وداعية مرة ، وذرف دمعة من اجل « الادب المعاصر » . لكن ما الذي اغاظه ولم يستطع تحمله ؟ الطعام ؟ الشراب ؟ الرقص والقمار في قصر القيصر الرومنطيقي ؟ ظلال اشجار الزيتون المنعشة ؟ الشمس المتوهجة على الشاطىء العامر بالحصى ؟ كل ما نعرفه بيقين هو انه انسحب متشامخاً ، وعلى وجهه امائر التفكير الساهم الحزين ، وسترته الجلدية السوداء الانيقة تلتمع تحت اضواء التلفزيون .

ملفين ج . لاسكي

بهذه القيم نؤمن

صدرت في اثينا في الشهر الماضي مجلة جديدة باللغة اليونانية ،اسمها « ايبوك »، وتربطها اوثق الروابط بالمجلات الاخرى التي تصدر عن المنظمة العالمية لحرية الثقافة . يحرر هذه المجلة الروائي والكاتب المسرحي انجيلوس تيرزاكيس ، ومن اعضاء هيئة تحريرها جورج سفيريس ، ابرز شعراء اليونان الاحياء . وقد وردت في افتتاحية المجلة ، الراسمة لاهدافها ، المقاطع التالية :

ان الحضارة الاوربية المنبثقة عن التقاليد اليونانية والرومانية والمسيحية ، ترتبط في وعينا ببعض القيم. وجماع هذه القيم يعطي صورة كاملة عن الانسان الذي كونته هذه الحضارة . ومع اننا لا نميل الى وضع هذه القيم المترابطة في طبقات متفاوتة ، يجدر بنا ذكر حرية التفكير في المقام الاول ، فهي تفترض ازالة كل تدخل مادي او معنوي من شأنه ان يكبل الفكر البشري ؛ وبدون هذه القيمة الاساسية التي تستتبع حرية التعبير تصبح سائر القيم بلا جدوى ، وقد تكون ضارة في بعض المناسبات .

وثمة قيمة اساسية اخرى فيحضارتنا الا وهي ابراز الشخصية الانسانية من بين مجموعة البشر . فالانسان المعاصر يجد نفسه امام تعاليم تكفر بهذه الشخصية وترمي الى اغراقها في بحر من الشك والالحاد ، مع حرمانها من حقها المقدس في التمتع بحياة روحية بهيجة . ولكن لحسن الحظ ان قوة الحياة ذاتها تقضي على هذه الاساليب الاصطناعية التي تقف سدا منيعا في وجه التطور البشري ،وكل انسان ثاقب النظر يدرك اننا ندخل مرحلة اعادة القيم السلبية الى الانسان مع كل متطلباتها الثقافية.

واذا نحن تابعنا هذا التعداد للقيم وصلنا الى مجموعة تتضمن حرية انتقاد السلطة الحاكمة وحق المراقبة الفعالة ، وهي قيم سفك الاوربي دمه للفوز بها ؛ ومع انه لا يصح التنازل عنها ، فقد تبذل محاولات لانتزاعها منه.

ان حق استعمال التفكير قبل اتخاذ موقف ما يناقض مذهب السلطة، اي نزعةوضع مهمة التفكير واتخاذ المقررات في ايدي افراد معينين ؛ وان عواقب هذه النزعة كانت دائماً وخيمة حتى في المراحل التاريخية التي بدت فيها كمرحلة طبيعية نحو حرية الانتقاد. ونحن على يقين بانه لا توجد على الانسان ، الذي يريد حقا ان يكون انسانا ، سلطة تستطيع ان تحرمه حرية التفكير .

واذا نحن فكرنا في هذه القيم التي تشكل اساس كرامة الانسان وجدنا انها تنتهي الى وظيفة اساسية للجنس البشري ، الا وهي اقامة حوار في المجتمعات.

ان سير الانسان في سبيل التقدم والسعادة وفي سبيل كلما يمثل حقوقه وآماله،يفترض بالضرورة هذا الحوار ؛ ومن خلاله ومن خلال التوازن الفكري تنبجس الحقيقة التي تخطط طريق البشرية. وحيثما ينقطع هذا الحوار نلاحظ بسرعة تدني الانسان وانحطاطه ؛ وقد مرت اجيالنا بتجربة مريرة من هذا القبيل . ولا ريب بان بعض القراء سيجدون هذه الحقائق بديهية ، ولكننا نطلب منهم ان يمعنوا النظر فيما حولهم وفي داخل انفسهم ليجدوا ما هي الاخطار التي تهدد الكرامة الانسانية كما حاولنا ان نحددها هنا. ان هؤلاء القراء لا يفقهون بانه يتحتم علينا ان نحمي هذه القيم بصورة مستمرة . واننا نصدر هذه المجلة ونحن نطمح الى اثارة هذه المعركة في الضمائر وتحريك القوى الثقافية والروحية في سبيل الدفاع عنها ، مستمدين حيويتنامن الماضي والحاضر ومن الجيل الصاعد الذي يحمل رسالة فتية صافية .